مسألة تحديد النسل

وأثرها الاجتماعي والبيولوجي

وما لقيهُ اصحابها من مقاومة واضطهاد

اذا عرضت الحركات الاجتماعية الخطيرة في تاريخ ارتقاء العمران وجدتها تنبعث في الغالب عن دافع نفسي يملك مشاعر الانسان آخذاً على العقل سبيل التفكير المجرَّد . فهي آناً حركات يولدها ويمنّيها في سبيل التنفيذ حمية دينية كالصهيونية او شعور بحق مهضوم كالثورة الفرنسية — وقد لا يكون موضوماً قط — او تصوّراً رفيعاً للمثل الأعلى يبعث في جوانب النفس يدفعها في سبيل تحقيقه غير ملتفتة الى ما يناالها من اذى واضطهاد كالاشتراكية وما اليها . على ان حركة تحديد النسل تختلف عن هذه الحركات الاجتماعية في انها تنبع من معرفة علمية بوجود مخاطر صحية وسياسية واقتصادية تنجم عن كثرة النسل يجب اجتنابها ، مع انها في طورها الأخير تحوَّلت تحوُّلاً كبيراً لما نالهُ اصحابها من مقاومة واضطهاد وسجن وغرامة ، ولكن اساسها العلمي يجب ان لا يغفل حين بسط مبادئها والالمام بسير الأشخاص الذين غذوها بأفكارهم وعواطفهم مستهينين بكل غالٍ في سبيل اغراضها الاجتماعية العالية

وفكرة تحديد النسل ، كأكثر الأفكار العلمية العظيمة تستند اصلها من مفكري اليونان الأقدمين . فقد ذكر فلوطرخس مؤرخ العظماء الأقدمين ان ليكرغوس مشترع سپارطة قضى بقتل كل الأطفال الضعاف البنية رغبةً منهُ في تنشئة شعب قوي . وادرك افلاطون وارسطوطاليس الخطر الناجم عن كثرة الولد ، وخصوصاً ما كان منها في الأسرة الضعيفة فاقترحا اساليب متطرفة مختلفة لاجتنابه . ولكن طائف النسيان طاف على هذه الفكرة في القرون الوسطى كما طاف على اكثر الآراء العلمية التي ابتدعها عقول اليونان وخيالهم . حتى بعد نهضة العلم والفن في العصور الحديثة ظلَّت «كثرة النسل» شعاراً لأمم اوربا لأن المفكرين حينئذٍ كانوا يرون عظمة كل امة وتفوقها مرتبطاً اوثق ارتباط بعدد سكانها ، ولم يشذ منهم الا اللورد باكون الفيلسوف الانكليزي الذي اشار اشارات متفرقة في مؤلفاته الى خطر النسل الكثير في اضعاف الشعب وافقاره . وظلَّ القول بأن قوة الأمة الحربية وتفوقها القومي مرتبطان بكثرة سكانها حتى القرن التاسع عشر ، لما قام موتلكيو في فرنسا وبنيامين فرنكلن في اميركا وغيرهما في بلدان اخرى محاولين ان يبثوا آراء افلاطون

وارسطاليس من مدفها مبينين ان في سرعة ازدياد النسل في اية امة خطراً على رفاهيتها. ذلك انهُ اذا زاد عدد السكان في بلد من البلدان زاد عمرانهُ ولكن الى حدٍّ معين . لان كثرة الناس في البلاد تؤدي الى اتساع نطاق العمل والعناية باستنباط ثروة الارض ورفع مستوى المعيشة . ولكن لا يلبث الازدحام ان يبلغ حداً تصبح الزيادة بعدهُ ضرراً على البلاد لانها تخفض مستوى المعيشة بدلاً من ان ترفعهُ . ويكثر طلاب العمل حتى يزيدوا عما تتسع لهُ المعامل والتاجر وطاقة البلاد. فترتع بينهم مبادئ الشيوعيين والفوضويين ويكون المرتع خصباً

ثم هنالك من يذهب ان كثرة السكان مفتاح التوسع الاستعماري والباعث عليهِ والمسوّغ لهُ . فيقول موسوليني مثلاً « يجب على ايطاليا ان تتوسع والاّ انفجرت » ولا يخفى ما في هذا الموقف من الخطر العظيم على السلم العام . فقد كتب احد الفلاسفة الاجتماعيين المحدثين كتاباً قال فيهِ ان الاتجاه من المراكز المزدحمة بالسكان الى البلدان قليلة السكان وما ينشأ عن ذلك من التصادم اكبر باعث على الحرب

ولكن القول بتحديد النسل ظلَّ يتراوح بين الموت والحياة حتى جاء الأب « مالتوس» في آخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨) مبيّناً ان السكان يزدادون زيادة هندسية وأما المواد الغذائية فلا تزداد الاّ زيادة حسابية ولذلك لا بدَّ ان يجيء يوم يبلغ فيهِ عدد سكان الأرض عدداً لا تكفي مواردها لتغذيتهِ . وأودع رأيهُ هذا في كتابهِ الذي موضوعهُ « رسالة في مبادىء السكان » . ولما كان نشر هذا الكتاب موافقاً لذيوع المبادىء التي قامت عليها الثورة الفرنسية عني بهِ المفكرون والكتّاب فراج في فرنسا وأخذ بمبادئهِ اشرافها وعامتها ، وذلك لان وسائل مختلفة كانت قد استنبطت فيها لمنع الحمل وذاعت بين طبقة الأشراف ، ولان عامة الأمة الفرنسية اقتنعت بوجوب الاكتفاء بالأسرة الصغيرة منعاً لتقسيم الأرض التي يملكها الاب على ابنائهِ، وهذا يعلّل تناقص متوسط المواليد في فرنسا من ذلك الحين. على ان وسائل منع الحمل لم تكن معروفة خارج فرنسا لذلك أشار الاب مالتوس « بالعزب » أو « تأخير الزواج» لمنع ازدياد النسل ازدياداً سريعاً وجاء بعدهُ فريق النفسيين الذين جعلوا شعارهم «الخير الأكبر للعدد الاكبر» فدعوا الى تحديد النسل. ومع ان مذهب مالتوس في ازدياد النسل وازدياد الغذاء قد تقلب رأساً على عقب بعد الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، ظلت النتائج التي وصل اليها عن الخطر الاجتماعي الناجم عن كثرة النسل سليمة على قدمها وتقلب الاحوال عليها

ولا يخفى ان آراءنا في الفضائل الاجتماعية تتغير بتغير العصور . فالمرأة التي كانت في فجر التاريخ ، تعترض على قتل ولدها ، حرياً على تقاليد قبيلتها كانت امرأة غير فاضلة في عرف اقاربها وجيرانها . كذلك كانت كل امرأة اسبرطية تحاول ان تمنى ابنها الضعيف

من الشدائد التي كان يعرض لها لاثبات قوته وحقه في الحياة كاسبرطيّ . فالفضيلة كانت ، عمل ما يصدر عنهُ الخير للمجتمع ، ولم يكن من خير سكان جزيرة ، او قبيلة رحالة ان يكثر نسلهم ، كما انهُ لم يكن من خير سبارطة ان يكون بين ابنائها ضعاف

ولما ارتقى العمران حلّ محلّ قتل الاطفال وسائل مختلفة للاجهاض كان لها مكانها في الفضيلة الاجتماعية في تلك العصور . فلما ذاعت تعاليم المسيحية التي تقول بأن كل نفس قابلة للخلاص صار من الاجرام قتل النفس ، ولذلك اصبح الاجهاض كقتل الأطفال جريمة لا تغتفر . اما دعاة تحديد النسل فيعترفون بوجوب الأعراض عن قتل الأطفال او اجهاض الأمهات ، لأن الأول في عرفهم اجرامٌ والثاني فوق ما فيهِ من اجرام يعرّض الأم للألم المبرح وخطر الموت . ولذلك ينادون بوجوب منع الحمل بطرائق ثبت خلوّها من اي اعتراض طبي او صحي او اجتماعي عليها

أما البراهين التي يدلون بها لتأييد دعوتهم فكثيرة نلخص منها ما يلي :

لقد اجمع كبار الثقات في موضوع الولادة وأمراض النساء على وجوب انقضاء سنتين الى ثلاث سنوات بين ولادة وأخرى اذا شئنا ان لا تتعرض صحة الام للخطر . واليك ما تقولهُ سيدة في مستقبل الشباب، حالتها تمثل الوف الحالات : لا ازال في الثانية والعشرين من عمري ولكني أم خمسة أولاد فقد ولدت ولداً كلّ سنة من حين زواجي الى الآن . لن استريح قط واشعر ان صحتي آخذة في الانحطاط يوماً بعد يوم» . وكتبت أخرى : « انا اليوم أم ستة اولاد وقد اجهضت مرتين . عمر ابني الكبير اثنتا عشرة سنة ولكنهُ مصاب بعاهة منذ ولادته اما اولادي الخمسة الباقون فضعاف صفر الوجوه عليّ ان آخذهم للطبيب كثيراً واحدى ابنتيّ عوراء . لقد حاولت ان ابتعد عن زوجي قدر المستطاع منذ ولادة ابني الاصغر ولكن ذلك يؤدي الى ما لا تحمد عقباهُ في سلام البيت وهناءته» وقد اثبت الدكتور ادلفوس نُفَف من اطباء مدينة نيويورك ان آخر المواليد في الاسر الكبيرة يكونون اضعف المواليد بنية واكثرهم تعرضاً للاصابة بالسل . وعنده ان الام تكون قد اجهدت صحتها في الولادات الاولى فتعطي ولدها الاخير — او اولادها — ارثاً فسيولوجيًّا ضعيفاً لا يمكنهم من مقاومة الآفات الصحية . اضف الى ذلك ان ازدياد الاولاد يقلل نصيب كلّ منهم من دخل والدهم . فتضطر الاسرة ان تسكن في احياء قذرة مزدحمة لا تدخل الشمس بيوتها وان تكتفي بالطعام الرخيص وبالكساء الذي لا يمنع البرد . ومن رأي الرئيس هوفر ان كل طفل اميركي — وغير اميركي ! — لهُ الحق في ان يتلقى من والديهِ جسماً سليماً وعقلاً سليماً وان يولد في وسط صحي تتوافر فيه اسباب العناية » . ويضيف الى ذلك

احد رجال الكنيسة في اميركا « ان الاسرة الكبيرة في الطبقات الفقيرة ليست من ارادة الله ولكنها من خرق الاجتماع » ويقول رباي ستيفن وز اكبر رجال الدين اليهودي في اميركا : «ان الموقف الديني ازاء الحياة لا يقضي باكثار النسل اذا لم يكن في وسع الوالدين ان يعطوا كل ولد من العناية الصحية والتهذيبية ما يجعل للحياة قيمة في عينيه »

اذاً تحديد النسل يفيد الامّ ،لانه يمكنها من ان تحتفظ بصحتها ونضارتها ، وهذا يمكنها بدوره ،من العناية بشؤون دارها وزوجها وأولادها والقيام على تربيتهم وتهذيبهم بما يجب لهذه الامور من العناية الدقيقة المستمرة والنصب الدائم. وهو كذلك يفيد الاولاد ، صحيًا واجتماعيًا، اما صحيًا فان الطفل الذي يولد من امّ قوية ليس كالطفل الذي تلدهُ امّ انهكتها آلام الحمل والولادة وتباريح الاجهاض. واما اجتماعيًا فتوافر وسائل الغذاء والكساء والتعليم والتهذيب

وهو كذلك يفيد الاجتماع ، اذ يستطيع المصاب بمرض وراثي ان يكفي ميولهُ الجنسية الشرعية من غير ان يكون سبباً في ولادة اولاد مشوهين او مصابين بامراض يقولون

هذا جناهُ ابي عليّ وما جنيت على احد

وهو يفيد الاجتماع من ناحية أخرى هي الناحية السياسية فيساعد على منع الحروب بين الامم الكثيرة الولد التي تطلب التوسع لتجد لكلها ميداناً يعملون فيه ويرتزقون منهُ وهذا التوسع يؤدي في الغالب الى احتكاك واصطدام في المصالح الدولية ويفضي الى الحرب او يهدد بوقوعها . وقد قال الواعظ الاميركي الشهير الدكتور فزدك «لا تستطيع ان تضع ثقتك بالرب وتنام خالي البال اذ سمحت لسكان الارض ان يتضاعفوا كل ستين سنة »

اما نقاد هذه الحركة فيرون رأي اصحابها في الشرور الصحية الكثيرة التي تنجم عن كثرة الولادة ، ولكنهم يرون «ضبط النفس» لا «تحديد النسل» خير سبيل لمعالجة الحال. على ان هذا متعذر حتى ولو اتفق الزوجان على تحقيق هذا الغرض . لان العلم لم يكشف حتى الآن عن وقت معين لا يحدث فيه الحمل الا في اثناء الحمل . فاذا شاء الزوجان ان لا يلد لهما ولد الا مرة كل ثلاث سنوات افيعقل ان يكون « ضبط النفس » حينئذ وسيلة لمنع هذه الشرور ! ويرى طبيب من مقام الدكتور وليم الن بيوزي رئيس الجمعية الطبية الاميركية ان محاولة تقليل عدد الاولاد « بضبط النفس » يعرّض السعادة الزوجية للاصطدام على صخرة ناشزة الاياب. ومما يقال في نقد هذه الحركة ان وسائل تحديد النسل تؤذي الانسان وتسبب العقم . ولكن الاطباء الذين بحثوا هذا الموضوع بحثاً استقرائيًا يؤكدون ان استعمال الوسائل التي اقرّها الاطباء لا تحدث شيئاً من الاضرار المشار اليها

ويعترض فريق آخر من النقاد بقولهم ان شيوع وسائلها يكون مقدمة لفساد الآداب

الجنسية وانحلالها . ولكن الدكتور بيوزي يرى ان الحالة الحاضرة ابعث على فساد الآداب الجنسية . لانهُ يعتقد ان الجهل بوسائل تحديد النسل يفضي الى كثير من الاضطرابات العائلية فيبحث الرجال عن طريقة غير مشروعة لاكفاء ميولهم الجنسية

على ان اقوى حجج المقاومين هي اثر شيوع هذه التعاليم في الشبان والشابات . وهذه الحجة تمنع طائفة كبيرة من المتعلمين عن تأييد هذه الحركة ان لم تقل مقاومتها . فيرد انصارها عليهم بقولهم ان علماء البيكولوجيا قد اثبتوا ان النواهي لا تحمي حمى الفضيلة والآداب . ويجب ان نبحث عن طريقة اخرى نعلم بها الاحداث الاعتصام بالفضيلة الجنسية غير النهي والمنع . اضف الى ذلك ان دعاة هذه الحركة يريدون ان يشجعوا الشبان والشابات على الزواج الباكر بازالة اكبر موانعه وهو الخوف من كثرة الاولاد التي تضعف المرأة وترهق جيب الرجل . ويرون ان الزواج الباكر افضل الطرق لمحاربة الشرور الاجتماعية

اما دعاة هذه الحركة فقد نالوا من المقاومة والاضطهاد ما ينتظر لكل حركة تناقض اغراضُها ما تواضع عليه الناس قروناً متوالية واحلّوه في نفوسهم وعقائدهم في المحلّ الاقدس واشهر هؤلاء رتشرد كارليل (١٨٣٠) وفرنسيس بلايس (١٨٣١) وروبرت وايل اون (١٨٣٢) والدكتور نولتن وكلهم من المؤلفين الذين عنوا بوضع كتب في الموضوع من وجوهه الفسيولوجية والاجتماعية والفلسفية . وفي سنة ١٨٥٤ نشر الدكتور جورج درسديل كتاباً عنوانهُ اصول العلم الاجتماعي بسط فيه الملتوسية (نسبة الى الاب مالتوس) الجديدة ثم انشأ بالاشتراك مع اخيه وحنة بزانت رائدة الفلسفة البوصوفية عصبة لبث هذه التعاليم . وفي سنة ١٨٧٦ قبض البوليس على بائع كتب ليبيع نسخاً من كتاب الدكتور نولتن المدعو ثمار الفلسفة . فعاد الدكتور برادلو وحنة بزانت لنشر الكتاب وتقدما للمحاكمة سنة ١٨٧٧ فحكم المحلفون عليهم رغم ميل القاضي للاخذ بادلتهم فكانت هذه الحادثة وسيلة لاذاعة التعاليم الملتوسية الجديدة ومن ثم اخذت « العصبة الملتوسية الجديدة » تقوى وتمدّ آثار دعوتها الى انحاء الكرة الارضية وأنشئت لذلك جريدتان في انجلترا . واسست فروع للعصبة في مختلف البلدان . وقد عقد اتحاد هذه الفروع مؤتمرات دولية اولها في باريس سنة ١٩٠٠ ثم في لياج سنة ١٩٠٥ ثم في اهاي سنة ١٩١٠ ثم في درسدن سنة ١٩١١ ثم في لندن سنة ١٩٢٢ ثم في نيويورك سنة ١٩٢٥ . اما تاريخ هذه الحركة في اميركا فيختلف قليلا عن تاريخها في انكلترا لان الاميركيين كانوا اشدّ وطأة في مقاومتها وقد سنوا لذلك قانوناً يقضي على كل من يرسل رسالة بالبريد تحتوي على وصف وسائل تحديد النسل بغرامة الف جنيه وسجن خمس سنين . واشهر انتقامات بهذا العمل في اميركا السيدة مرغريت سانجر التي استنبطت لفظتي « تحديد النسل » لوصف اغراض الحركة سنة ١٩١٤